

الجاردان: الحرب على غزة فاقمت حدة المظالم الشعبية المصرية – سواء بشأن فلسطين أو في الداخل



نشرت صحيفة الجاردان البريطانية مقالاً للباحثة ريم أبو الفضل، المحاضرة في جامعة لندن، استعرضت فيه موقف الشعب المصري مما يحدث في غزة.

تقول الكاتبة إن الإبادة الجماعية التي تتكشف في غزة تهز العلاقات بين الدول والمواطنين في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

ففي مصر، دفعت الأحداث تعاون النظام السياسي الغامض على نحو مريح مع إسرائيل إلى دائرة الضوء، ودفعت ملايين المصريين إلى الخروج من تركيزهم الداخلي على الصمود اليومي وسط ارتفاع التضخم والبطالة. وهم يواجهون الآن خطراً إسرائيلية لإعادة احتلال غزة باستخدام مصر كقناة، من خلال إجبار الفلسطينيين على النزوح جنوباً باتجاه سيناء.

وترفض كل من الدولة المصرية ومواطنيها تهجير الفلسطينيين بشدة ولكن لأسباب مختلفة. وتعكس هذه الاختلافات هوة بين النظام والشعب فتحت بتوقيع اتفاقات كامب ديفيد في عام 1978، والتي تتسع بفعل الأحداث أكثر يوماً بعد يوم.

تاريخ من الدعم للقضية الفلسطينية

وتلقت الكاتبة إلى أن للمصريين تاريخ طويل من الدعم للقضية الفلسطينية، في سياق الهوية القومية العربية المشتركة. وقد عارض الجمهور لأول مرة مشروع الاستعمار الصهيوني في الثلاثينيات، وقاتل الجيش في حرب فلسطين 1948.

وفي الخمسينيات من القرن الماضي، عرض الرئيس المصري جمال عبد الناصر دعم الدولة للفلسطينيين وحقق انتصاراً سياسياً بعد هجوم إسرائيل وبريطانيا وفرنسا في عام 1956، لكنه تعرض للهزيمة في الحرب 1967 مع إسرائيل. وحقق خليفته، أنور السادات، انتصاراً ميكراً في حرب 1973، عندما عبرت القوات المصرية قناة السويس لتحرير سيناء، ولم تتمكن إسرائيل من استعادة توازنها إلا بعد نقل جوي للأسلحة الأمريكية.

ومع ذلك، حول السادات لاحقاً الدولة المصرية نحو «التطبيع» مع إسرائيل. وحُفِر السكان بعيداً عن الاحتجاج من خلال تقديم المساعدات الأمريكية

مقابل ما أصبح معاهدة السلام لعام 1979 بين مصر وإسرائيل.

وفي غضون ذلك، فقد الفلسطينيون مركزيتهم في الخطاب العام المصري، وحتى أن البعض شوهمهم على أنهم مسؤولون عن محتهم. وعلى مدى أكثر من 40 عاماً، عملت الأنظمة المصرية المتعاقبة على ترسيخ وجود إسرائيل باعتبارها حقيقة من حقائق الحياة.

وكان التبرير هو ادعاء السادات بأن «الولايات المتحدة تمتلك 99% من البطاقات في الشرق الأوسط»، وبالتالي كان من غير المجدي المقاومة. وكان الهدف هو التراجع عن سنوات من العلاقة الحميمة السياسية والاجتماعية والثقافية بين المصريين والفلسطينيين، الذين كانوا متحدين في مقاومة الاستعمار البريطاني قبل سنوات من تأسيس إسرائيل.

ومع ذلك، وحسب ما تضيف الكاتب، لم يكن هذا مشروعاً ناجحاً أبداً، واندلعت المظاهرات التضامنية مع الفلسطينيين باستمرار. وسمحت القيادة الذكية لحسني مبارك بهذه الاحتجاجات من أجل صرف الانتباه عن مشاكل الناس الداخلية. ومع ذلك، في النهاية، مهدت تلك الاحتجاجات الطريق للانتفاضة يناير 2011 ضده.

تعاطف واسع

وفي عهد الرئيس الحالي عبد الفتاح السيسي، حظر النظام جميع التجمعات الجماهيرية. ومُنِع المصريون من التعبير عن تعاطفهم مع الفلسطينيين، بينما طُلب منهم التركيز على تغطية نفقاتهم. وكما لاحظ البعض بذكاء، ترك هذا مصر حالة شاذة إقليمياً، مع عدم وجود مظاهرات تضامنية خلال الانتفاضة الفلسطينية في مايو 2021.

ومع ذلك، لم يكن الأمر كذلك في أكتوبر 2023: فقد أثار إفلات إسرائيل العنيف من العقاب رد فعل شعبي في مصر لا يمكن احتواؤه. وفي نظر المصريين، فقد دلت أحداث 7 أكتوبر على كسر الفلسطينيين لحصارهم، والتي خرقت سيل الأخبار المستمر للانتهاكات والاحتجاز والإعدامات والاستيلاء على الأراضي في القدس والضفة الغربية وغزة. ثم شعر المصريون بالعجز مع بدء القصف الإسرائيلي، لا سيما بالنظر إلى قربهم الجغرافي من غزة.

وقصفت إسرائيل مراراً معبر رفح على الحدود بين مصر وغزة وعرقلت وصول قوافل المساعدات. ومع استمرار تدفق الصور المؤلمة من القطاع، تصاعد حزن المصريين وغضبهم.

من التعاطف إلى الدعم الفعال

وأضافت الكاتبة أن موجة التعاطف القوية تلك تطورت إلى رغبة في الدعم الفعال. وفي الأجواء السياسية الخانقة في مصر، لجأ الكثيرون إلى أداة المقاطعة، مستهدفين الشركات الغربية المعروفة بدعم إسرائيل. وفيما يتعلق بالشباب المصري على وجه الخصوص، كانت وحشية إسرائيل ودعم الغرب القوي بمثابة جرس إنذار.

منذ اتفاقات كامب ديفيد، تطلع عديد من الشباب المصري إلى أسلوب الحياة الغربية، ونادراً ما شككوا في مصداقية اللغة السياسية لحقوق الإنسان والديمقراطية. لكن بين عشية وضحاها تقريباً، تحطمت هذه الأساطير لملايين المصريين، وهم يشاهدون تأييد إسرائيل يتدفق من واشنطن وبروكسل ولندن، بينما تستمر المذبحة في غزة. وبحسب التقارير يناقش بعض العاملين في قطاع المنظمات غير الحكومية بدائل التمويل الغربي، ويعربون عن قلقهم العميق لاعتمادهم عليه.

وينطبق الشيء نفسه على فهم عديد من المصريين لتواطؤ القوى الإقليمية، وخاصة الموقعين على اتفاقيات إبراهيم مثل الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية، التي كانت تُجهز لإبرام اتفاقها الخاص. وقام فنانون مصريون بمقاطعة مهرجان الفنون الأخير في الرياض، وتعرض الذين ذهبوا لانتقادات لاذعة.

وبدأت نقابة الصحفيين المصريين هذا الشهر في تنظيم حدث فلسطيني يضم أغاني من المقاومة الشعبية للسويس عام 1956. ومنذ ذلك الحين أطلقت «قافلة الضمير العالمي»، داعية إلى تحالف دولي من المتطوعين للذهاب إلى رفح للضغط على إسرائيل للسماح بمزيد من المساعدات والمطالبة بإنهاء الحرب. وغني عن القول، قبل الهدنة المؤقتة وبعدها، يعارض الرأي العام المصري خطة سيناء كمرحلة جديدة من التطهير العرقي في فلسطين.

وتشير الكاتبة إلى أن هذه هي أجواء التعبئة والإحباط التي تحيط بالنظام المصري، لافتة إلى أن لدى القيادة مخاوفها الطويلة الأمد من أن إسرائيل تريد «تصدير» الصراع إلى مصر – وقد تأكد ذلك من خلال تسريب وثيقة استخباراتية إسرائيلية بتاريخ 13 أكتوبر، تقترح «نقل» فلسطيني غزة إلى شبه جزيرة سيناء.

وهذا يعني إيواء آلاف اللاجئين، ويشكل خطر اجتذاب المصريين إلى صفوف الجماعات الفلسطينية المسلحة، أو استفزاز شن ضربات إسرائيلية، أو ما هو أسوأ من ذلك. وتتمتع إسرائيل بالدعم الأمريكي الكامل، وقد مارست ضغوطاً على مصر للقبول، لكن السيسي دعا إلى قمع عربية وتحدث مع القادة الأمريكيين والأوروبيين، وكرر رسالة الرفض في كل مرة.

لقد حاول النظام تحقيق ذلك بمساعدة الشعب المصري. في 18 أكتوبر، دون أي مفارقة، قال الرئيس إنه يمكن حشد «الملايين» لمقاومة الضغط الأمريكي الإسرائيلي. وسرعان ما حددت السلطات مواقع بعينها لخروج المصريين للتظاهر. وخطط السيسي لاستخدام هذه الاحتجاجات لامتناع الغضب الشعبي، وإرسال رسالة إلى الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وإسرائيل مفادها أنه ببساطة لا يمكنه قبول خطة سيناء دون المخاطرة بموقفه.

الخروج عن النص

ونوهت الكاتبة إلى أن تلك الاحتجاجات المخطط لها انتهت بعدد ممن شاركوا فيها بالخروج عن النص متجهين إلى ميدان التحرير. حتى أن البعض ردد شعار انتفاضة 2011 «العيش والحرية والعدالة الاجتماعية» وأصرت الحشود على أن «دي مظاهرة بجد مش تفويضاً لحد».

وقامت الشرطة باعتقال أكثر من 100 شخص، ومنذ ذلك الحين شددت السلطات قبضتها مرة أخرى على ميدان التحرير بالمركبات المدرعة. ومع ذلك، تحدثت شخصيات مثل شيخ الأزهر أحمد الطيب، وأيدت المقاومة الفلسطينية، وطالبت بإعادة تقييم علاقات مصر مع الغرب.

وترى الكاتبة أن شعبية القضية الفلسطينية مكنت النظام من توظيفها لصالحه – على الرغم من سجله الخاص – من أجل النفوذ الداخلي والدبلوماسي. ومع ذلك، فإن هذه الشعبية تعني أيضاً أنها يجب أن تظل تحت السيطرة، سواء عن طريق الاحتواء أو القمع، خشية أن يتحول النشاط الفلسطيني إلى احتجاج محلي كما حدث من قبل.

وفي غياب المعارضة المنظمة، قد تستغرق هذه العملية سنوات حتى تتطور، ولكن يبدو أن هناك إحساساً بأن دروس اليوم – تمييز الصديق عن العدو، والحقيقة عن الأكاذيب، والقوة من المقاومة – تزيد من حدة المظالم الشعبية. وبحسب أحد الأصدقاء، فإن المصريين يدقون في أنفسهم بعد سنوات من الهزيمة بعد الثورة: «نحن مثل شخص يحاول الوقوف على قدميه، بعد ضربة قاسية».